رمزية اللاجئ الفلسطيني في تجربة عز الدين المناصرة

بحث مقدم لمؤتمر "اللاجئون الفلسطينيون وحق العودة"
جامعة القدس المفتوحة
2012/5/13

د. صالح حسن سليم رجب

2012م

ملخص:

تتناول الدراسة رمزية اللاجئ الفلسطيني في تجربة عز الدين المناصرة، وهي دراسة تحليلية، فنيـــة تســـعى للكشف عن طبيعة رمزية اللاجئ ودلالته وأبعاده الفنية والنفسية والجمالية.

وتهدف الدراسة للتعرف على آلية تطور رمزية اللاجئ الفلسطيني في تجربة المناصرة من خلال لجوئه إلى استخدام بعض التقنيات والأساليب التي جسد من خلالها معاناة الإنسان الفلسطيني.

قد تمحورت الدراسة حول ثلاثة محاور أساسية، كشفت عن رمزية اللاجئ:

1- الرمز الكنعاني الوطني.

2- الرمز التاريخي.

3- الرمز الديني.

Palestinian Refugee Symbolism in Ezz Idden Al Manasrah Experience

Abstract:

The study tackles the Palestinian refugee symbolism in Ezz Idden Al Manasrah Experience. It is an artistical analytical study seeks to reveal and highlight the denotative symbolic nature, the artistical, psychological, aesthetical dimensions of the refugee.

The study aims to acknowledge the developed mechanism of symbolism in the Palestinian refugee by using some techniques and procedures to personify the Palestinian suffer.

In addition, the study revolves the following three fundamental topics:

1- The patriotic Canaanites' symbol.

2- The historical symbol.

3- The religious symbol.

مقدمـــــة:

إن البنية الرمزية للقصيدة الفلسطينية الحديثة أصبحت تشكل معلَماً وجسداً بارزاً من معـــالم التشـــكيل الفنـــي للقصيدة؛ فالرمز ظاهرة معرفية وفنية متميزة، لها أهميتها البالغة، بسبب ثراء دلالة ألفاظها من ناحية، وكيفية توظيفها من ناحية أخرى، فضلاً عن أن الرمز في الشعر الفلسطيني الحديث يمثل خصوصية؛ لأنه متأثر بالواقع المؤلم الـــذي يرزح تحته الفلسطيني، والذي اكسب الرمز خصوصية تنبع من طبيعة الجدل الدائر بين الإنسان الفلسطيني والكيـــان الصهيوني، وما يتولد عن ذلك من أشكال الصراع وحالات التشريد والضياع التي حلت به فالدراسة تحاول الكشـــف عن هذه الخصوصية التي تفرد بها شعرنا الفلسطيني، وخصوصاً الشاعر عز الدين المناصرة بوصـــفه أحـــد أنســـجة الشعر العربي.

لقد أسهمت تجربة الشاعر، وعيشه في المنافي في إثراء إبداعه الشعري وإبراز معاناة الإنســـان الفلســـطيني المعذب والمنفي في شتى بقاع الأرض، والحالم بالعودة إلى وطنه وإنهاء حالة الشتات والعيش في مخيمات اللجوء.

تجربة عز الدين المناصرة تجربة فريدة وغنية بالرموز والدلالات؛ لأنه عاش بعيداً عن وطنه، إذ يعتبر رائد الرمز الكنعاني الوطني، ومبدع رموز جديدة، عكس من خلالها الواقع المأساوي الذي يعيشه الفلسطيني داخل فلسطين وخارجها، فالحديث عن الفلسطيني هو حديث عن اللاجئ –أيضاً–؛ لأنه أُجبر وطرد من ديـــاره ووطنـــه، فتجربـــة المناصرة الشعرية جسدت ذلك في العديد من قصائده.

فقد اعتمد الباحث على المنهج التحليلي الفني الذي يعنى بتفكيك الرموز ودراسة جزئياتها، وإعادة بنائها مـــن جديد.

لقد تناول الباحث (رمزية اللاجئ الفلسطيني في تجربة عز الدين المناصرة) بالدراسة والتحليـــل؛ لتصـــوير حالة اللاجئ المأساوية، وبيان وفضح الخداع الصهيوني الذي يعبث بعقول العالم.

لذلك سيتناول البحث مفهوم الرمز وأهميته وكيفية توظيفه واستدعائه لدى المناصرة، معرّجاً علـــى تقنيـــات توظيف الرمز بكافة أنماطه وأشكاله، من نمط كنعاني وطني، وتاريخي، وديني، حيث نجده يســـتدعي العديـــد مـــن الرموز والشخصيات والأحداث التي تتقارب في مأساتها مع واقع الفلسطيني المعذب والمنفي خارج فلسطين، والمقـــيم في مخيمات اللجوء والباحث عن العودة.

مفهوم الرمز وأهميته:

الرمز ظاهرة شائعة في الشعر العربي الحديث، للرقي بالمستوى الفني للقصيدة إلى أعلى درجات الإبداع، حيث يبعد القصيدة عن الأسلوب السردي والتقريري المباشر.

والشاعر الفلسطيني عز الدين المناصرة لجأ في قصائده إلى بعض التقنيات، لإثراء تجربته الشعرية، وليبين من خلالها حالة الشتات التي يعيشها الإنسان واللاجئ الفلسطيني في الداخل والخارج.

"ويعتبر الرمز وسيلة إيحائية من أبرز وسائل التصوير الشعرية التي ابتدعها الشاعر المعاصر عبر سعيه الدؤوب وراء اكتشاف وسائل تعبيرية لغوية جديدة، يثري بها لغته الشعرية، لوصف مشاعره وأحاسيسه وأبعاد رؤيته الشعرية" [1]، والذي ينقل القارئ إلى عالم جديد يربطه بالفكرة الأساس التي يقصدها.

إن لجوء الشاعر إلى رموزه الفنية "يعمل على تخصيب الرؤى، ليستطيع أن يمد طرفه إلى غيابات تجربته، مما يعطيه القدرة على أن يشق في حقل الفن رؤى شعرية نبتها الرمز، وثمرها تلك المعاني المختلفة التي ندركها من خلال القصيدة"[2] وذلك يؤدي إلى إيصال علاقات نفسية تنبثق من الشاعر، وهو في تعبيراته يولد كثيرا من المعاني التي تثير لدى المتلقي الكثير من المشاعر والأحاسيس.

وينتشر الرمز أصداءه في الإبداع الشعري؛ لأنه طاقة حية متفجرة تشع في أكثر من اتجاه، ومن الصعب حصره في تفسير معين؛ لأنه "اقتصاد لغوي، يكثف مجموعة من الدلالات والعلاقات ببنية دينامية تسمح لها بالتعدد والتناقض، مقيماً بينها أقنية تواصل وتفاعل"[3]، وهو بهذا الشكل وسيلة الشاعر للتعبير عن مشاعره وانفعالاته، لما يحدث للإنسان من ضياع وتشريد ونفي خارج وطنه وخصوصاً الإنسان الفلسطيني.

وعلى هذا النحو نرى أن الشاعر الفلسطيني المهجّر البعيد عن وطنه وأرضه استعار من مصادر التراث المختلفة رموزاً وعناصر أثرى بها تجربته الشعرية، واستغلها في بناء صوره ورموزه للإيحاء بما لا تستطيع اللغة العادية أن توحي به من مشاعر وأفكار، لذلك "فإن الرمز والصورة يعتمد كل منهما على نوع من التشابه بين الصورة وما تمثله، والرمز وما يوحي به، بينما تظل الصورة على قدر من الكثافة الحسية، بينما يبلغ الرمز درجةً عاليةً من الذاتية والتجريد"[4].

والشاعر عز الدين المناصرة أكثر في قصائده من الرموز والدلالات، فنراه يستحضر عدة أنواع من الرموز التراثية والوطنية والتاريخية؛ ليعكس من خلالها مأساة اللاجئ الفلسطيني وواقعه المشتت في المخيمات والأراضي العربية يبحث عمن ينهي مأساته، ويعيده إلى أرضه ووطنه فلسطين.

---

(1) د. علي عشري زايد، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، ط1، مكتبة دار العلوم، القاهرة، 1978، ص110.

(2) د. رجاء عيد، لغة الشعر (قراءة في الشعر العربي الحديث)، منشأة دار المعارف، الإسكندرية، 2003، ص190.

(3) د. خالدة سعيد، حركية الإبداع (دراسات في الأدب العربي الحديث)، ط2، دار العودة، بيروت، 1982، ص191.

(4) د. محمد فتوح أحمد، الرمز والرمزية في الشعر العربي الحديث، ط3، دار المعارف، القاهرة، 1998، ص140.

والرمز عند عز الدين المناصرة استند في مصادره الرمزية على الاستيحاء من واقع الحياة الإنسانية الفلسطينية، والذي قال عنه الدكتور صلاح فضل هو عبارة عن "تحويل الوقائع المباشرة الحية إلى وقائع إبداعية فنية لها دلالات أبعد من مثيرها الحرفي المباشر"[1]،لأن الواقع وعلاقاته يبدو في الإبداع الفني أكثر غنىً وجمالاً من حقيقة الواقع، والمبدع لا يعكس الواقع ولا يلغيه، وإنما يعيد صياغته بعد تجريده من تخومه المادية وعلاقاته؛ لأن "الأدب لا ينشأ من فراغ، وإنما ينمو في مجتمع يمده بالتجارب والوقائع والأحداث، ومن ثم يعيد صياغتها وإخراجها في قالب ذاتي ينفيها ويتجاوزها، إنه بحكم تفرده وتميزه لا يعكس الواقع والمجتمع، ولكنهما ينعكسان فيه، أو يؤلفان مادته الأولى التي تجتهد في إعادة تركيبها وتشكيلها تشكيلاً خاصاً، يصبح معادلاً موضوعياً للدوافع والنزعات الداخلية للمبدع"[2]، الذي يتميز بحساسيته الشعرية، ورهافته الإبداعية وقدرته على استكناه حقائق الأشياء؛ لأنه يعيش الواقع بحسه الفني، ويتأثر بقضاياه وهمومه، فأصبح ذلك الواقع ينهل منه مادته الرمزية.

وسيقوم الباحث برصد صور وأشكال الرموز الوطنية والتاريخية والدينية التي تناولها الشاعر، والتي جسد من خلالها حالة الضياع والشتات التي يعيشها الفلسطيني، إزاء ما حل به جراء طرده ونفيه خارج وطنه وإجباره على العيش في مخيمات اللجوء والشتات.

المحور الأول: الرمز التراثي الوطني:

استدعى عز الدين المناصرة الرموز التراثية، ووظفها في قصائده، وخصوصاً الرمز الكنعاني وبصورة مكثفة جداً، فيذكر شخصية امرئ القيس الذي وجد في أبعادها ما يحمل أدق ملامح تجربته الحياتية والوجدانية، وما يتعلق بأبعاد مآسي الملك الضليل الخمس: اللامبالاة واللهو، الضياع والتشرد، البكاء على مقتل أبيه، السعي وراء الثأر، الهزيمة التي حلت به.

فالقارئ لشعر المناصرة يجده يتحد مع تلك الشخصية، لدرجة أنه في رسالته إلى أبيه يسمى نفسه امرئ القيس، فليس غريباً أن يتخذ من ذلك الرمز معبراً أساسياً لرؤيته الشعرية، ومنطلقاً لارتياد عوالم الرؤية الشعرية عنده، ليتواصل من خلاله مع أبناء شعبه داخل فلسطين وخارجها، وفي مخيمات اللجوء والشتات، مدركاً من خلال ذلك الرمز أن الاسم الكنعاني نابع من المنفى الاضطراري عن الوطن المغتصب من قبل العدو الصهيوني الذي يقف عائقاً في طريق العودة للأرض؛ لأن الجغرافيا والتاريخ لا ينفصلان عن الشاعر الذي ولّد من خلالها ملحمة أسطورية للتعبير عن حالة التناقض بين الماضي والحاضر، ونجد ذلك واضحاً في بعض قصائده، فيقول في قصيدة "دموع الكنعانيات"[3]:

طيلة أيام الأسبوع أسافر

---

(1) د. صلاح فضل، أساليب السرد في الرواية الحديثة، ط1، دار سعاد الصباح، الكويت،1992، ص60.

(2) د. عبد القادر الرباعي، في تشكيل الخطاب النقدي (مقاربات منهجية معاصرة)، ط1، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 1998، ص20.

(3) عز الدين المناصرة، الأعمال الشعرية، ط5، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2001، ص285-286.

بين الجذر الأحمر والجذر الأخضر

ما بين عناق اللونين أذوب

تهاجمني نجمات الليل القادمة إلى زمني

وتهز الذاكرة!

شجيرات السدر تجيء محملة

بعطور الكنعانيين

يشدون الخيل على الساحل

يبنون متاريس على المرج المنبسط

من الناقورة حتى الرمل.

الكنعانيات، يجئن،

- - - - - - - - -

المعشوشب دمعاً ودماً، والباكي وحشته

لولا أن حمامات طارت ،حطت

وأقامت غربتها

تركض عبر الأنهار قديماً وحديثاً

وكذلك كان الكنعانيون يجوسون

جسّد الشاعر منذ بداية قصيدته حالة اللاجئ والإنسان الفلسطيني الذي يجوب الأرض شرقاً وغرباً بحثاً عن مكان آمن يستقر ويعيش فيه، ونجد ذلك منذ مطلع القصيدة في قوله "طيلة أيام الأسبوع أسافر" ومجيئه بالألفاظ المتضادة؛ ليعكس من خلالها حالة التناقض التي يعيشها عندما قال "طارت، حطت"، فالفلسطيني يواصل السفر والتنقل بين الأقطار العربية مستذكراً الأرض والوطن، فهو يعيش حالة من التناقض المأساوي بين الذاكرة والحلم، الأمل واليأس، البعد والعودة، فالشاعر يستثمر تلك الرموز ويجمعها في مناخ فني ونفسي موحد؛ ليعبر عن حالات انفعالية وتجارب شعورية محملة برؤية أكثر اتساعاً وشمولاً.

فالقارئ لشعر المناصرة يجد عودته إلى الجذور الأولى عودة إلى الأصل "الكنعاني والكنعانيات"، فيوظفها الشاعر توظيفاً فنياً، ويضفي عليها طابعاً رمزياً مكّنه من تجاوز دلالته الإشارية للدخول في آفاق إيحائية تعبر عن معاناة اللاجئ الفلسطيني القابع تحت وطأة الغربة والمنفى التي ألمت به، وتحولت إلى واقع يعيشه في حلّه وترحاله، وليس أمامه سوى الصبر والمقاومة والتشبث بهذه الجذور؛ لتحقيق حلم العودة المنشود إلى أرض الوطن.

والشاعر يأتي برموز؛ ليدل على المكان، فيذكر لفظ "الحمامات" التي يصيبها الأسى والألم عند تركها بيوتها الأولى التي غادرتها في فلسطين، فقد جعل ترك الحمامات لأعشاشها، بمثابة ترك الفلسطيني لوطنه وأرضه؛ لأن هناك تشابهاً في ألم الخروج وترك الأهل والوطن والعيش بعيداً عنهم في المنفى.

والمناصرة ينهل ويستند على الطبيعة التي أكسبت رموزه دلالات جديدة تتناسب مع انفعالاته وتجاربه، حيث أكسبها آفاقاً معرفية جديدة، والتي تُشعر المتلقي في كل مرة أنه أمام صورة جديدة لها قيمتها الدلالية والجمالية الخاصة؛ لأن "اختلاف الصور التي تعرض فيها، هي التي تعطيها قيماً جمالية مختلفة." [1]

ويستثمر الشاعر عناصر الطبيعة الكنعانية النابضة بالحركة والحيوية والأصالة، ويوظفها توظيفاً رمزياً داخل تشكيله الفني؛ ليعبر من خلالها عن ارتباطه وتجذره بأرضه، ويبطل مزاعم الصهاينة بأحقيتهم بأرض فلسطين، من خلال استحضاره رموز "شجيرات السدر تجيء محملة بعطور الكنعانيين"، وذلك استحضار لأجداده الكنعانيين الأوائل، واستحضاره –أيضاً– "الخيل على الساحل، وهي إشارة ورمز إلى الأصل الكنعاني على أرض فلسطين، فالخيل دلالة على الخيل العربية الأصيلة، وكذلك الفلسطيني في أحقيته بهذه الأرض، واستمرار سعيه الدؤوب والمتواصل؛ لدحر المحتل والعودة إلى دياره وأهله والعيش بأمن واستقرار.

ويعمد الشاعر إلى استدعاء السؤال لخلق المفارقة، وتوليد المعاني التي تتفجر بها تجربته، فتوظيف السؤال لا يأتي عبثاً، فالشاعر يريد أن يفجر كوامنه؛ لينسجم مع طبيعة الواقع المأساوي الذي يحيط به، فيقول المناصرة في إحدى قصائده: [2]

ماذا أقول للكنعانيات في مدن المنفى
حين غفظت الهدهد مرتكبا حماقته
فوق حائط الكرم العتيق، حيث الطحالب ذكرى
محاولا أن ينقر ثمار الرمان في قلبي
مسافات بين مراح الغزلان الممتد كصارية
ماذا أقول للكنعانيات الواقفات تحت أشجار الحور
أأقول... تمتطين حميركنّ نحو معاقل البدو الأثرية
– – – – – – – – –
أأقول... لو أستطيع أن أكون قربكنّ على مرمى حجر من قبر جفرا؟؟!!

(1) د.عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، ط3، دار الفكر اللبناني، 1974، ص216.
(2) عز الدين المناصرة، الأعمال الشعرية، ص446.

يتواصل الشاعر مع الرمز الوطني الكنعاني؛ ليعكس من خلاله صورة مخيمات اللجوء والشتات، ويتضح ذلك عندما قال "مدن المنافي" فالمنافي ليست بالمدن، بل هي أماكن لجوء وشتات سكن فيها الإنسان الفلسطيني خارج وطنه وداخله، فنجده يحمل رمزه الكنعاني طابع التكثيف والذي حمل بين جنبيه دلالات كثيرة وتأويلات معبرة. ويتضح ذلك من استخدامه أسلوب الاستفهام الاستنكاري، عندما قال "ماذا أقول للكنعانيات" والتي أسهب فيها من أجل التعبير عن أرضه وأبناء وطنه الذين يتمنون أن يعودوا إلى الوطن والخلاص من حالة العذاب والبعد عن الوطن الحبيب.

ونجد المناصرة يجوب بخياله الكون، ويمتد بروحه إلى قلب الأشياء، ويطرق عناصر الطبيعة ومفرداتها؛ ليعود ويرسم صورة رمزية فنية تكشف عن أسرار الطبيعة، فقوة الخيال الشعري ونشاطه تصهر عناصر الطبيعة المتباينة في بناء فني له أبعاده الدلالية، وطاقته الإيحائية المتجددة؛ لأن لها قدرة إنسانية على تحويل الغياب إلى حضور، والواقع إلى ممكن، والموجود إلى غير الموجود، والتي تعني قدرة الخيال على تحويل الزمان والمكان اللذين نعيش فيهما إلى طراز إنساني واعد بالوجود المفعم بالحضور[1]، ونجد الشاعر يتوحد مع الطبيعة ويستذكر بعض ألفاظها؛ ليتحد معها ويضفي عليها معاناته ومعاناة شعبة، فيقول في قصيدته "يتوهج كنعان":[2]

توهج كنعان بين حقول الشعير

توهج كنعان ورداً وخوفاً وخبزاً وشاياً

علي تله قرب برقوقة

يتكئ الشاعر علي عناصر الطبيعة الفلسطينية ويستذكر شجر "البرقوق" الذي هو في الأصل شجر فلسطيني، والذي رمز بها لتجذر الإنسان الفلسطيني في الأرض التي ستمده بكافة الطاقات، فكنعان هو الأصل والتاريخ الذي يرقد في أحضان الجغرافيا، تلك الرؤية الخاصة يتمتع بها الشاعر، وذلك يدل على مهاراته وقدرته علي التكثيف بالمعاني، فهو لم يجعل كنعان تاريخاً أو أصلاً فقط، بل جعله مستمراً في التوهج في كل شيء في حقول الشعير والورود التي أصلها كنعانية، كل ذلك أعتبره الشاعر إيقاظاً للتاريخ وللاجئ الفلسطيني، ليحل على الأعداء كالقدر الذي لا يستكين ولا يستسلم، رغم المحاولات المستمرة لطمس الهوية الفلسطينية، وجعله البقاء في مخيمات الشتات والبعد المتواصل عن الأرض والأهل هو موت وضياع له.

ويولّد الشاعر من الرموز رموزاً أخرى للدلالة على عمق التشبث والانغراس في الأرض والوطن والعودة إليه مهما طال الزمن أو قصر، فيقول في قصيدته "يا عنب الخليل":[3]

سمعتك عبر ليل الصيف أغنية خليلية

---

(1) انظر: د. جابر عصفور، آفاق العصر، ط1، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، 1997، ص29.

(2) عز الدين المناصرة، الأعمال الشعرية، ص564.

(3) المصدر السابق، ص25-27.

خليلي أنت: يا عنب الخليل الحر... لا تثمر

وإن أثمرت، كن سما علي الأعداء، لا تثمر!!!

- - - - - - - - -

عنب دابوقي من جبل الخليل يناديني

من جبل الشيخ أيا براد

من دمع كروم الكنعانيين، صلاة الأسياد

- - - - - - - - -

من طين الحور، تعصره، تنتظر النبع المتدفق

في غربتها

يرتبط الشاعر ارتباطاً وثيقاً بتراث شعبه وخصوصاً التراث الشعبي، ويتضح ذلك منذ دواوينه الأولى، فنجد ذلك عندما أطلق على العنب "عنب الخليلي"، فكلمة "الخليلي" تأكيد من المناصرة على عمق الارتباط والانتماء، فيأتي عنب الخليلي رمزاً للفلسطيني الحر البعيد عن وطنه والمطالب من الأعداء بألا يثمر، وإذا أثمر، عليه أن يكون سماً على الأعداء؛ ليقضي عليهم لحظة تذوقهم هذا العنب، كل ذلك كان تعبيراً عن ملاحقة الاحتلال للمناضل الفلسطيني لمنعه من المقاومة، ويعطي الشاعر "عنب الخليل" رموزاً ومدلولات جديدة، فيولد منها رموزاً أخرى، إذ جعل نداء الباعة على عنب الخليل في الأسواق رمزاً لمن تاجروا بالقضية وتركوا أبناءهم في مخيمات الشتات والمعاناة، يتلهفون للعودة إلى الأرض والعيش في حضنها بأمن واستقرار، و"سلات العنب" الممتدة كامتداد التاريخ، وهو تأكيد لقدم الإنسان الفلسطيني على ارضه، التي غرس فيها كروم العنب والزيتون، وبذكره لفظة "نعيمي" تأكيد على ارتباطه ببني نعيم التي ولد فيها، والتي هي في الوقت نفسه اسم قبيلة كنعانية عربية قديمة، فهو مندغم بالتراث الكنعاني الذي أسقط عليه معاناة الإنسان الفلسطيني الحياتية والنفسية والوجدانية في المنافي ومخيمات اللجوء والشتات الموجودة في العديد من الأقطار العربية.

ويلجأ المناصرة إلى رمزية جديدة في إبداعه الشعري، عبّر من خلالها عن معاناة الإنسان الفلسطيني، فنجده يستحضر الرمز اللوني ودلالته التي تتيح للنص الشعري جملة من الإيحاءات والرموز وتتعدى دلالة الألوان دلالاتها ونطاقها الوضعي إلى ما هو أعم؛ لأن الشعر "ينبت ويترعرع في أحضان الأشكال والألوان، سواء أكانت منظورة أو

مستحضرة في الذهن، واللون بالنسبة للقارئ وسيلة لاستحضار المعنى المراد"[1]، ويجسد ذلك الشاعر في قصيدة "عاصفة فلفل أكحل":[2]

أعلام فوق سطوح القرميد

الأخضر ضلعي

الأحمر دمعي

والأبيض شمعي

والأسود منفاي وترحالي في هذي البيد

يستحضر المناصرة في المقطع السابق الألوان، ويجمع بينها، والتي هي ألوان "العلم الفلسطيني"؛ ليشكل من خلالها لوحة فنية، استمدت جمالها من تباعد ألوانها؛ لأن "الألوان المتباعدة إذا اجتمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة"[3].

يجعل الشاعر من اللون الأسود في العلم الفلسطيني، رمزاً إلى غربته وظلامه الدامس الذي عاشه الفلسطيني في المنافي العربية، وكذلك حمّل الألوان الأخرى التي يتشكل منها "العلم" دلالات محددة، فجعل من اللون الأخضر رمزاً للخصب والقوة والمقاومة، والتي ستفضي في النهاية لتحقيق حلم العودة للاجئ الفلسطيني إلى أرضه، ويجعل من الرمز الأحمر رمزاً للكآبة والأحزان الناتجة عن سيلان الدم الفلسطيني في الأرض الفلسطينية وفي المنافي العربية، ويؤكد ذلك عندما ذكر "أعلام فوق سطوح القرميد"، فالقرميد هي مكونات بيوت المخيمات التي يسكنها اللاجئ الفلسطيني، وجاء اللون الأبيض رمزاً للسلام.

المحور الثاني: الرمز التاريخي:

لم يقف الشاعر الفلسطيني عند حدود المدونات التاريخية، بل تجاوزها إلى ما هو أبعد من أسلوبها السردي؛ حيث اختار منها مناطق ودلالات مشعة ومضيئة تنبض بالحيوية، وأعاد صياغتها، وخلقها من جديد بشكل يتناغم مع تجارب شعبه المشرّد ومعاناته داخل فلسطين وخارجها، إزاء طرده من أرضه ووطنه، فإن "تعامل الشاعر مع حساسية التاريخ يتم عبر تقنيات الفرز الجدلي للوقائع والاختيار والتحوير والتشويه المتعمّد، عندئذ لا تبقى الواقعية التاريخية كما هي؛ أي تتحول الواقعية التاريخية بعد استخدامها كل هذه التقنيات إلى واقعة شعرية؛ لأن هذا التحول

---

(1) د. عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر (قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية)، ط1، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، 1985، ص130.

(2) عز الدين المناصرة، الأعمال الشعرية، ص738.

(3) د. محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، ط4، دار النهضة العربية، 1969، ص259.

والفرز الجدلي هما ما يميزان الشعر عن التاريخ، ودرجات الهضم والامتصاص التي تحدد درجة سيطرة الشاعر على حساسية التاريخ"[1]، فالشاعر عز الدين أعاد كتابة التاريخ ممتزجاً بواقع معاناته ومأساة شعبه، وفق واقع معرفي جديد يجمع بين الماضي والحاضر ويستشرف آفاق المستقبل.

والمناصرة يوظف ويستدعي الكثير من الرموز التراثية، ويسقطها على معاناة الشعب الفلسطيني ومأساته، فنجده يضمّن بعض قصائده بعض الشخصيات والمواقف التاريخية، مثل شخصية المتنبي، والحسين، وامرئ القيس، وأبو محجن الثقفي والعديد من الأحداث والشخصيات التاريخية، ولمحدودية الدراسة سنكتفي ببعض الرموز التاريخية التي تشابهت في مأساتها مع مأساة أبناء الشعب الفلسطيني وتشريده، وستنحصر الدراسة على شخصيتين اثنتين هما: شخصية امرئ القيس، وشخصية أبو محجن الثقفي، فقد أسقط الشاعر دلالاتهما على الفلسطيني المشرد القابع في أرض الشتات واللجوء، وجسد ذلك في قصيدة "قِفا.. نبكِ"[2]:

مقيم هنا أشرب الخمر في حانة
قرب "رأس المجيمر"... كل مساء
هنا ينعب البوم في سقفها،
تستريح ثعالبها من ثمول الرخاء
هنا حيث نأوي مع الليل
لو يسمع الرمل وقع خطي الندماء
نجوم السماء تراقبنا في السماء
ملأنا جدار الصحاري ضجيجا لنادلة
وزعت بعض آهاتها للسيوف صدأت في قباء
ملأنا كؤوس البكاء
لنادلة بعثرت نصف خطواتها في ارتعاش سكون الخلاء

يتكئ المناصرة في بناء القصيدة على الموروث الشعبي، فيستدعي بعض كلمات معلقة امرئ القيس ويجعلها عنوان لقصيدته "قفا نبك"، فهي أول كلمات معلقة امرئ القيس الشهيرة، فالمناصرة يتخذها قناعاً يختفي وراءه ليجسد من خلاله هول وعظيم الفاجعة التي حلت به، فالمناصرة لم يبك على حبيب ضاع بل كان بكائه على الفاجعة التي

(1) عز الدين المناصرة، حارس النص الشعري (شهادات في التجربة الشعرية)، ط1، دار كتابات، بيروت، 1993، ص95.
(2) عز الدين المناصرة، الأعمال الشعرية، ص32.

حلت به إزاء تركه وطنه وعيشه في دروب المنافي والشتات، فتضمين الشاعر لبيت امرئ القيس جعل منه مفتاحاً لفهم النص وفك غموضه والتعرف على معانيه ودلالاته الرمزية، فيقول امرئ القيس في معلقته[1]:

ويستدعي المناصرة شخصية امرئ القيس التاريخية، والتي شكلت عنده جوهراً يرتديه؛ ليصب من خلاله مأساة شعبه بأسلوب درامي قصصي، فأمرىء القيس تكمن مأساته في أنه كان شاعراً، وأميراً، وعاشقاً ماجناً، وشريداً؛ حيث طرده أبوه (الملك حجر) نتيجة لمجونه وشربه الخمر، فعاش طريداً في البلاد، ثم إنه بعد مقتل أبيه، حمل لواء الدعوة إلى الثأر له، وطاف يستنجد بالقبائل؛ لتعينه على الثأر لأبيه، فخذلته القبائل فذهب يستنجد بالقيصر، ثم بعد ذلك مات مسموماً أثناء عودته من عند القيصر[2]، تلك المأساة والمعاناة تشابهتا مع حالة التشريد والضياع التي حلت بالإنسان الفلسطيني، وطرده وإجباره على العيش بعيداً عن أرضه ووطنه فلسطين.

فالمناصرة من خلال تضمينه شخصية امرئ القيس؛ إنما أراد أن يعكس من خلالها حالة الضياع والتشريد التي حلت باللاجئ الفلسطيني داخل فلسطين وخارجها، واتضح ذلك عندما قال "أشرب الخمر"، "ملأنا كؤوس" وهي رمز ودلالة على حالة امرئ القيس.

ويتخذ المناصرة من شخصية امرئ القيس رمزاً، والتي بلغت حد الاتحاد والامتزاج؛ لأنه وجد فيها قدرة على استيعاب أبعاد تجربته المأساوية؛ ليضفي عليها من ملامح مأساته، حيث يصبح الشاعر والشخصية كياناً جديداً، يقول عنها د. صلاح فضل بأنها تتطابق معه إلى حد التلاشي الصوتي والوجودي والنحوي في هيئة النص وتشكيله النهائي[3]، ونجد ذلك في القصيدة نفسها فيقول[4]:

حين جاء النبأ

قضيت الليالي

افرق بين الصواب... وبين الخطأ

ولا زاد في جعبتي

غير ما صنعته يدي الآثمة

وما أرسلته مع الفجر لي فاطمة

تقول: انتصر لأبيك، انتصر لأبيك.

---

(1) أبي عبدالله الحسين بن الزوزي، شرح المعلقات السبع، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978، ص4.

(2) انظر: د. على عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997، ص149.

(3) انظر: د. صلاح فضل، بحوث سيمولوجية في شعرية القص والقصيد، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1995، ص14.

(4) عز الدين المناصرة، الأعمال الشعرية، ص36.

يستفيد المناصرة من مأساة امرئ القيس، ويسقطها على مأساة الشعب الفلسطيني الذي شُرّد وطُرد عن أهله ووطنه، فنجده يستدعي ما حل بأمرىء القيس إلى درجة التوحد والاستغراق؛ ليجسد معاناة الفلسطيني عندما قال: "حين جاء النبأ"، "قضيت الليالي"، "أفرق بين الصواب والخطأ"، كل ذلك جعل المناصرة يعمل على حث أبناء شعبه في الداخل والخارج على الاستعداد لمرحلة الثورة؛ لاسترداد الأرض والوطن من أيدي الطغاة المحتلين، وإنهاء حالة الشتات والعيش في المنافي، فإذا كان أمرىء القيس قد تحمّل مسؤولية الثأر لمقتل شخص واحد، فالمناصرة نجده في قصيدته يتحمل مسؤولية ضياع شعب بكامله، وتشريد أهله في شتى بقاع الأرض، ويجسد ذلك في مقطع آخر من القصيدة نفسها:[1]

سأشرب حتى ولو كانت الكأس مرة

فمن أجل غزلان وجرة

غداً أدخل الحرب أول مرة

رحلت وحملتني عبء هذا النبأ

رحلت وحملتني عبء هذا الفراق

رحلت وحملتني عبء أرض تريد العناق

رحلت وحملتني يا أبي ما يطاق

وما لا يطاق!!!

\- - - - - - - - -

رغم موتي سأغنيك إلى يوم القيامة

مشرعاً صوتي وسيفي

في وجوه الندماء!!!

إن استدعاء المناصرة لشخصية امرئ القيس ومعاناته وحالة الشتات والطرد التي ألمت به، والتي اتخذ منها رمزاً وقناعاً يختفي وراءه؛ ليجسد شتات ومعاناة اللاجئ الفلسطيني البعيد عن أرضه ووطنه، والمسؤولية التي أخذها على عاتقه للأخذ بثأر أبيه، ويتضح ذلك من لفظة "حملتني" وتكراره كلمة "رحلت" هي تأكيد من الشاعر على حالة الشتات والعيش في المنفى، فالشاعر يتحمل مسؤولية استرداد الأرض، عندما قال "غداً أدخل الحرب" والتي تدل على انتظار هذا الغد ليأتي الخبر بالنصر، وانتهاء حالة اللجوء والشتات في المنافي.

فالمناصرة يجسد مأساة طرد امرئ القيس ويسقطها على مأساة الشعب الفلسطيني وتشريده في المخيمات وأماكن اللجوء والمعاناة، فالمناصرة أعاد من جديد تجربة امرئ القيس، وأسقطها على تجاربه المعاصرة من خلال

(1) المصدر السابق، ص36-39.

أحداث ومواقف، وذلك لأنه "يصعب بعث التجربة الماضية ما لم تحدث نزاعات مشابهة في التجربة المعاصرة"[1]، وجسد ذلك في قصيدة " أضاعوني"[2] والتي عبر من خلالها عن أبعاد تجربته؛ وإحساسه بالغربة والتشرد بعد ضياع أرضه، فالشاعر عاش مشرداً وحزيناً في البلاد، وخيبة أمله من الأمة العربية التي خذلته وخذلت قضيته، وكذلك امرئ القيس الذي خذلته القبائل، حين تخلى الكل عنه وتنكروا لمساعدته، واليوم يتنكر الأعمام للمناصرة وفي تنكرهم تنكر للشعب الفلسطيني بأسره، وتنكر للأمجاد العروبة التي كانت تتلألأ على مشارف الدنيا بالعزة والكرامة في ظل حالة الصمت والخنوع التي تعيشها الأمة العربية، وكذلك امرئ القيس الذي خذلته القبائل إزاء ما حل به في طرده عن وطنه وأهله.

مضت سنتان.. قالت جدتي وبكت

وأعمامي

يهزون المنابر، آه ما ارتجوا

ولا ارتاعوا

قال الشاعر المنفي حين بكى:

"أضاعوني وأي فتى أضاعوا"

- - - - - - - - -

عرجت صوت مدائن النوم الكسيحة أستغيث

الكل اقسم أن ينام

قدم على قدم مثلك لا ينام

- - - - - - - - -

لو كنت أعرف أن مجدك من زجاج

ما أتيت

أنت التي خليتني قمراً طريداً دون بيت

يستدعي المناصرة صراخ واستغاثة امرئ القيس عند قوله "أضاعوني وأي فتى أضاعوا" نتيجة طرده وإجباره على الرحيل خارج وطنه، وسعيه المتواصل في البحث عمن يقف إلى جانبه ومساندته، ليأخذ بثأره بعد مقتل أبيه وجسد ذلك عندما قال "الكل أقسم أن ينام"، فالشاعر يسقط كل ذلك على معاناة الفلسطيني المشتت في بقاع

(1) ريتشاردز، مبادئ النقد الأدبي، ترجمة مصطفى بدوي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر، 1963، ص240.
(2) عز الدين المناصرة، الأعمال الشعرية، ص161-163.

الأرض، والباحث عن من يقف إلى جانبه؛ ليعيد له أرضه ووطنه في ظل التقاعس والترهل الذي يشهده العالم العربي.

والشاعر يتحد ويتفاعل مع تراث شعبه، فقد ارتبط منذ قصائده الأولى بتاريخ أمته وثوراتها ومأساتها ارتباطاً وجدانياً وفكرياً، فتعددت رمزية امرئ القيس، فكانت من أكثر شخصياته الموظفة في شعره، فالمناصرة يجعله علماً على تجربته، واسماً له في إحدى رسائله لأبيه، ففي قصيدة "المقهى الرمادي"[1]، التي بعث بها إلى أبيه، فيقول فيها: من امرئ القيس في القاهرة إلى أبيه في الأرض المحتلة، فنجده يسمي نفسه "الملك الظليل" حيث يذهب إلى مقهى الفيشاوي بالحسين؛ ليشرب من جدرانه الأحزان ويعاقر السأم فيقول الشاعر:

أين يمضي الملك الظليل في كل مساء...

أول الليل أجر الخطو، لا تدرين أين؟

نحو مقهى أشرب الأحزان من جدرانه قرب الحسين

\- - - - - - - - - -

وأقول اليوم خمر... وغدا... يا غرباء

يعتمد المناصرة على أبعاد ورمزية شخصية "الملك الظليل"؛ ليعبر من خلالها عن أبعاد تجربته وتجربة أبناء شعبه المشردين، وذلك نابع من إحساسه بالغربة والتشرد بعد ضياع أرضه، فالشاعر يلجأ إلى تقنية جديدة يعكس من خلالها تلك المأساة، فنجده يلجأ إلى "التناقض" وينهل منه دلالاته ورموزه، فنجده يتناص مع مقولة امرئ القيس "اليوم خمر وغداً أمر" والتي أراد أن يذكرنا بما حل بأبناء الشعب الفلسطيني.

لم يكن الرمز التاريخي لشخصية امرئ القيس هو الوحيد في شعر المناصرة، وإن كانت شخصية امرئ القيس تستحوذ على كيان الشاعر وإحساسه، وذلك لملاءمة تجربته مع تجربة الشاعر المريرة والمأساوية، فنجده يعتمد على شخصية أخرى يزيل عنها أتربة النسيان ويوظفها توظيفاً فنياً، فيستدعي شخصية "أبو محجن الثقفي" الذي عمد إليه؛ ليكمل به مراحل تجربته الفنية بكل آلامها وهمومها.

فالقارئ لتجربة أبو محجن الثقفي يجدها تتشابه مع تجربة امرىء القيس، من حيث إنهما كانا معاقرين للخمر ومدمنين عليه، وتعرضا للاضطهاد والنفي والعذاب، فقد نالا قسوة العقاب من الأهل والعشيرة وغيرهم، فالشخصيتان قد تركتا شرب الخمر، فامرئ القيس تركها حين اتجه إلى الثأر لمقتل أبيه، في حين أن أبا محجن الثقفي تركها ابتغاء مرضاة الله والجهاد في سبيله[2].

---

(1) المصدر السابق، ص42-43.

(2) انظر: د. واصف أبو الشباب، شخصية الفلسطيني في الشعر الفلسطيني المعاصر، ط1، دار العودة ، 1981، ص85.

إن استدعاء الموروث عند المناصرة لم يكن هدفاً؛ بل وسيلة أسهمت في إشباع التجربة، حيث التقط الشاعر جانباً من تجربة أبي محجن الثقفي، ليرمز من خلالها للواقع الأليم والمأساوي الذي يرزخ تحته، فيجسد ويضمن رؤيته الشخصية التراثية (أبو محجن) في الجهاد والمقاومة، التي اتخذ منها وسيلة لاسترداد الحق والأرض المسلوبة، في ظل التخاذل والتقاعس العربي إزاء قضية اللاجئ الفلسطيني، لإرجاعه إلى أرضه ووطنه المسلوب من قبل المحتل، فالشاعر يقول في قصيدة "أبو محجن الثقفي أثناء تجواله":[1]

يعاد أبو محجن الثقفي من الرحلة المتعبة

كان يحمل تاريخ عصيانه في الحقائب، تكتب عنه التقارير،

يمنع من شم عطر الأحبة، ثم اغتيال هويته في صباح الجليد

يعاد إلى أرضه بالقيود

- - - - - - - - -

أتيت إليك، اقبليني وهذي عيوني وهذي سلاسلهم في الزنود

- - - - - - - - -

أجوب البلاد أحاور إطلالها، الصامتات وحيداً هما في البعيد

- - - - - - - - -

يا حبيبي الذي قطع الأرض يبحث عني، أما

- - - - - - - - -

محروقة سفني لأنني بركان

مجبولة مدني بالقهر والحرمان

يستفيد الشاعر من أسلوب السرد؛ لجلب القارئ للإصغاء إلى ما يقول، حيث بدأ قصيدته بمشهد درامي، انتهى بمصير أليم وإيحاء بأن الصوت الذي يتحدث هو صوت مسكون بالكثير من الأصوات الرافضة والمتمردة في الماضي والحاضر والمستقبل، ليعمق درامية ذلك المشهد في حديثه عن الشخصية بضمير المبني للمجهول "يُعاد" تلك العودة من المنفى مكبلة بالقيود والسلاسل؛ ليزداد الإحساس بعمق الألم والقهر المسيطر على نفسية الشاعر من منعه المقاومة والجهاد والاستشهاد من أجل الوطن، وتارة أخرى عبر إشراكه أصواتاً أخرى، حيث يتواصل المشهد الدرامي من خلال تعدد الأصوات في القصيدة التي تتحدث عن "أبو محجن" عندما يصف ما يدور بين امرأة سعد بن أبي وقاص، وغيرها من النساء، ومطالبتهن لها بإطلاق سراحه من الأسر؛ ليلحق بالجيش ويحارب في سبيل الله، كل

(1) عز الدين المناصرة، الأعمال الشعرية، ص242-243.

ذلك لجأ إليه الشاعر؛ ليعكس من خلاله ما يمر به الفلسطيني القابع في مخيمات الشتات، وليتخذ منه رمـــزاً دراميّـــاً للفلسطيني، فيقول في القصيدة نفسها:[1]

سمعت النساء يقلن لها أطلقيه ففي وجهه توبة كالصلاة

رأيت وحوش البراري تصيح: إذا تاب فلتطلقيه،

ففي صدره عنب من جبال الخليل

أنا من أقام صروحا من الشعر عن عنب للمديح

أنا من رأى قبل أن يفعل الآخرون

أعود إلى منزلي في الصباح الصبوح

ليس لي منزل غير هذا الصفيح

يعمد المناصرة إلى الرمز التاريخي ليبين من خلاله حالة الفلسطيني المشرد عن أرضه ووطنه، والذي لـــيس له بيت يعيش فيه، فذكر أحد مكونات مخيمات اللجوء والشتات فيقول "ليس لي منزل غير هذا الصفيح"، فالصفيح هو بيت اللاجئين الفلسطينيين في المخيمات، ويبرز الشاعر "الأنا " الفلسطينية من أجل إثارة النخوة العربية واستنهاضـــها على مستويين مختلفين:

الأول: يأتي استنجاد الشخصية التراثية موجهاً للسلطة الحاكمة وهي سلطة "عمر بن الخطاب" متمثلـــة فـــي "سعد بن أبي وقاص".

الثاني: لإثارة النخوة والاستنهاض الشعبي والعربي من خلال قوله: "سمعت النساء يقلن لها أطلقيـــه"، "وفـــي صدره عنب جبال الخليل"، فالنساء هنا إشارة إلى الجماهير العربية الراغبة في استرجاع الحق إلى الشعب الفلسطيني؛ لإنهاء حالة الشتات والمنفى للعودة إلى الأهل والأرض، فالشاعر يؤكد ارتباطه بوطنه وأرضه الفلسطينية، عندما قال "عنب من جبال الخليل".

وبقراءة القصيدة كاملة نجد أن الشاعر يسقط قصة "أبو محجن" على الفلسطيني المشرد والمنفي خارج وطنه، فأبو محجن مستعد لتطهير نفسه من الذنوب؛ لينال شرف المقاومة في سبيل الله، والفلسطيني يستعد لإنهاء حالة النفـــي والتشريد والضياع خارج الوطن وداخله ، وطرد المحتل الغاصب من أرضه.

والقارئ لشعر المناصرة الذي عانى من حالة الشتات والمنافي، يجده يلجأ إلى كثير من الرموز والحكايـــات والأحداث التاريخية، مثل زرقاء اليمامة وشخصية المتنبي ومأساة الحلاج التي أسقط عليها مأساته ومأساة أبناء شعبه، والتي جعلها رمزاً للخلاص من تلك الحالة وتحقيق العودة إلى الديار المسلوبة.

---

(1) المصدر السابق، ص243.

المحور الثالث: الرمز الديني:

يعد الرمز من الوسائل الفنية المهمة في الشعر، فعن طريقه ينقل الشاعر أحاسيسه ومشاعره وأفكاره إلى المتلقي بالإيحاء والتلميح بدلاً من اللجوء إلى المباشرة.

فالشاعر عز الدين المناصرة أدرك ذلك منذ دواوينه الأولى، فلجأ إلى الرمز الإسلامي ينهل منه رموزه سواء أكانت آيات قرآنية أو شخصية أنبياء أو قصص دينية، ونجد المناصرة يتأثر بالعديد من المصادر الإسلامية، وفي مقدمتها "القرآن الكريم"، فيضمن أشعاره نصوصاً قرآنية يعكس من خلالها مأساته ومأساة شعبه الذي شرد وعذب في المنافي، ويتضح ذلك في قصيدة "مطار قلنديا":[1]

قبعاتهم الكنعانية مجدولة في سعف التلحيمة

هزّي قلوبهم مثل دلب الدالية

تساقط الأغاني والمواويل

يستدعي الشاعر القرآن الكريم؛ ليعكس من خلاله المعنى الرمزي من قوله تعالى في سورة مريم ﴿وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا﴾[2]، فالشاعر يجعل من النخيل القلب، فالشاعر يقلب المعنى المستدعى؛ ليجعل هزّ الدالية الذي سينتج الأغاني والمواويل، وهو استدعاء للموروث الشعبي، وذلك تأكيد من الشاعر أن الهز سيثمر ويتحقق النصر والعودة إلى الأهل والأرض.

إن هذا التضمين للنص الديني للآية الكريمة من سورة "مريم" أعطى سورة قرآنية لقلب الشاعر الصامد والشامخ كالنخيل، فالشاعر ولّد من المقطع السابق معان جديدة، فالنخلة أبدلت بالقلب، والدالية أبدلت بالنخلة والمواويل والأغاني ابدلت بالرطب، ولكن المعنى المولد يوازي المعنى الأصلي للآية، إذ يقوم على فكرة أن الهز يؤتي ثماره وأن الفعل يؤتي نتائج محمودة، مع اختلاف بين النص المولد والنص القرآني في عناصر الفعل، فالمهزوز هو (غصن الزمان) والشيء الذي تساقط هو (أوراق الماضي والحاضر).

ويستحضر المناصرة النص الديني، فنراه يوظف أسماء الله الحسنى، كما وردت في القرآن الكريم في قصائده، فيقول في قصيدة "نص الوحشة":[3]

ظل يداعبني: سمح الوجه غليظ القلب

---

(1) المصدر نفسه، ص118.

(2) القران الكريم، سورة مريم، الآية 25.

(3) عز الدين المناصرة، الأعمال الشعرية، ص612.

رؤوف ورحيم وسلام

فتان، قدوس، رحمن، وغليظ القلب

خداع يغويك بفتنته... وأنيق الهندام

يستدعي المناصرة أسماء الله الحسنى ويوظفها في قصائده، كما جاء في القرآن الكريم، ليتخذ منها رمزاً على بطش الاحتلال بالفلسطينيين وإجبارهم على الرحيل عن أرضهم ووطنهم والعيش في مخيمات اللجوء والشتات، فهذا النمط من التوظيف والرموز يعطي شعره نمطاً خاصاً وإيحاءات رمزية لجبروت المحتل، فإن الله سبحانه وتعالى أقوى منكم وسينزل عذابه عليكم.

من خلال هذه الأسطر الشعرية تظهر ضراعة الشاعر في الدعاء والتوجه للإله الخالق فتكرار (رؤوف ورحيم وسلام وقدوس ورحمن)، هذا الحشد لصفاته وأسمائه في إثارة وتحفيز لإدراكنا حول الخبر الذي تنتهي به هذه الأسطر وهو الإغواء والعذاب والتشتت في بقاع الأرض، فكل ذلك عكس حجم المعاناة والمأساة التي تقع من خلال هذا الظلم الذي استبد بالفلسطيني حتى جاوز حدوده، فنراه يتضرع لله أن يخلصه من الظلم والعيش في المنافي، وتحقيق حلم العودة للوطن الحبيب.

يستدعي المناصرة الشخصيات الدينية، وخصوصاً القريبة في تجاربها وقيمها ومعانيها من تجربة الإنسان الفلسطيني المعاصر وقضيته التي يناضل من أجلها، والرسالة الإنسانية التي يحملها في مواجهة الظلم والغدر والخيانة والخذلان.

ويقول د. علي عشري زايد إن شخصيات الأنبياء هي أكثر شخصيات الرمز والتراث الديني شيوعاً، لأنه ثمة روابط وثيقة تربط بين تجربتهم وتجربة الأنبياء، فكل من الشاعر والنبي يحمل رسالة إلى أمته، مع الفارق بينهما، فالنبي يحمل رسالة سماوية، لكن كليهما يتحمل العذاب في سبيل هذه الرسالة [1].

يوحد الشاعر بين معاناة امرئ القيس ومعاناة شخصية يوسف (عليه السلام)، ويذكرنا بهجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه، وخيوط العنكبوت التي نسجت خيوطها على باب الغار؛ لتنقذه وتحفظه من غدر المشركين، فيسقط كل تلك المآسي على معاناة الشعب الفلسطيني المشرد عن وطنه، فيقول المناصرة في قصيدة "حصار قرطاج":[2]

قد لدغنا ثلاثين قبل الرحيل

لدغنا ثلاثين في الفجوات

---

(1) انظر: د. علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية، ص98.

(2) عز الدين المناصرة، الأعمال الشعرية، ص650.

لدغنا ثلاثين في المعركة

لماذا إذا هدأت نجمة الحرب

تعطي الجوائز للهاربين ؟!!

يا امرئ القيس احذر قميصك

حاذر خيوط مؤامرة العنكبوت

إنها في قميصك فانفِدْ بجلدك

يبدأ الشاعر مقطعه بلفظه "لقد لدغنا"، "وقد" التي تفيد التحقيق والتأكيد على حصول الخيانة والغدر من الأمة العربية وضياع فلسطين، والشاعر يوازي بين الغدر الذي تعرض له امرئ القيس، وخيانة أخوة سيدنا يوسف، ويتضح ذلك عندما قال "يا امرئ القيس احذر قميصك"، فالشاعر يريد من خيوط العنكبوت ونسجها وترابطها أن يعكس تآمر الرؤساء العرب على الفلسطينيين، وخذلانهم والذي أدى في النهاية إلى ضياع فلسطين وتهجير أهلها وشعبها داخل فلسطين وخارجها ،يتنقلون في المنافي ومخيمات الشتات.

فالشاعر يستحضر قصة "العنكبوت" التي نسجت خيوطها وحافظت على النبي وأصحابه من غدر وبطش المشركين، إزاء إجبار الرسول "صلى الله عليه وسلم" بالهجرة من دياره (مكة) إلى المدينة، وكذلك الفلسطيني، لكن الشاعر جعل من خيوط العنكبوت "مؤامرة" عليه وعلى أبناء شعبه وضياع أرضه ووطنه وتوطينه في مخيمات اللجوء والشتات.

يتخذ الشاعر من لفظة "هاجر" رمزاً للهجرة القسرية التي فرضت على الفلسطيني والعيش في المخيمات خارج فلسطين وداخلها، فيجسد ذلك في قصيدة "يا عنب الخليل":[1]

من دمع كروم الكنعانيين، صلاة الأسياد

من لهفة جدتنا في الصحراء على الماء

من طين الحور تعصره، تنتظر النبع المتدفق

في غربتها

جسد المناصرة قصة "هاجر" ليبين معاناة الفلسطينيين وضياعهم في مخيمات اللجوء والشتات، ويتخذ من "هاجر" رمزاً لهجرة الفلسطينيين من أراضيهم، والمعاناة والظلم الذي حل بهم، فطرد هاجر وإبنها كان مفروض على سيدنا إبراهيم من زوجته سارة، إلا أنه نفذه بأمر من الله عز وجل.

---

(1) المصدر السابق، ص27.

فالشاعر يجعل من هاجر وابنها ضحية لهذا الظلم، حيث تطرد من وطنها لتهاجر بعيداً، بل يجعل المناصرة من سيرة هاجر وابنها إسماعيل حدثاً درامياً موازياً، ومتشابكاً مع قصة الشعب الفلسطيني ورحلة معاناته، عندما يذكر أو يربط بين هاجر وكروم الكنعانيين للدلالة على أصحاب الأرض الأصليين.

فالشاعر يضمن شخصية هاجر وابنها أثناء معاناتهم ورحيلهم عن الديار؛ ويتضح ذلك في قوله "من لهفة جدتنا في الصحراء على الماء" ودلالة من الشاعر على الحالة المأساوية التي تعانيها في بحثها عن الماء والغذاء لسد جوع وعطش إبنها في تلك الصحراء القاحلة ، فيأتي أمر الله بتدفق المياه من عين (زمزم) وتبقى في غربتها، فالشاعر يسقط ويعكس من خلال معاناة وهجرة هاجر وابنها معاناة وهجرة الفلسطينيين من أراضيهم ومكوثهم في مخيمات الشتات والمنفى، وأكد الشاعر في نهاية المقطع عندما اختتم مقطعه بعبارة "في غربتها" للدلالة على استمرار حالة الشتات والمنفى.

لجأ عز الدين المناصرة إلى استدعاء الرمز الديني، وخصوصاً الأحداث الدينية، وكان حريصاً على التقاط مواضع الألم التي عبرت عنها نصوص العهد القديم، وجسد ذلك في قصيدة "تأشيرة دخول"[1].

فضاؤك سجن كبير له شرفة واحدة
تؤدي إلى بئر هذا الرماد القتيل
له درج أكحل القلب يفضي إلى كومة من سموم
أنا منذ خمس أنوح
أنا قبل طوفان نوح
أجوب صحاريك أسأل عن واحة أو جزيرة
سأرحل عنك غداً فاسمعي كلماتي الأخيرة

استفاد الشاعر من قصة الطوفان، واتخذ منها رمزاً مزدوجاً رمزاً للهلاك ورمزاً للنجاة معاً، فقد كانت السفينة هي طوق الحياة من غرق الطوفان، فقد استثمر الشاعر ذلك المعنى ووظفه لكشف مأساته بعد أن حور في عناصرها لتلائم فكرته، فإذا كان الطوفان الذي صعدت عليه سفينة نوح إلى بر الأمان طوفان ماء، فإن المناصرة يرى أن سفينة العودة والنجاة الفلسطينية لا تسبح إلا في بحر من دماء الشهداء، أما جسم السفينة فهو من أجساد الشهداء، ومرسى السفينة أرض الزيتون الخضراء وأشجار العنب. اتضح ذلك في قوله "ولي من حدائقك الخضر أعناب خمر ونخل"، فالشاعر يختم مقطعه الشعري الدرامي بكلمة "سأرحل" والتي تدل على حالة الضياع والشتات

(1) المصدر نفسه، ص135.

التي تعرض لها الفلسطيني، وهو يبحث عن مكان آمن يعيش فيه، عندما قال أجوب صحاريك" فالمتتبع للقصيدة يجد الشاعر يستخدم سفينة نوح رمزاً للرحيل وليس رمزاً للنجاة.

ويجسد المناصرة حادثة أخرى في قصائده؛ حيث نجده يلتقط أحداث "التيه" فبعدما نجّا الله موسى عليه السلام ومعه بنو إسرائيل من فرعون وجنوده؛ حيث عبر موسى البحر وطالبهم بالدخول إلى الأرض المقدسة، رفضوا وقالوا له كما ورد في الآية الكريمة ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾[1]، فدعا عليهم موسى عليه السلام، فعاقبهم الله بالتيه في الصحراء أربعين سنة، فجسد ذلك المناصرة في قصيدة "زرقاء اليمامة":[2]

لكن يا جفرا الكنعانية

قلت لنا أن الأشجار تسير على الطرقات

كجيش محتشد تحت الأمطار

اقرأه سطراً سطراً رغم التمويه

لكن يا زرقاء العينين ويا نجمة عتمتنا الحمراء

كنا نلهث في صحراء التيه

كيتامى منكسرين على مائدة الأعمام

ولهذا ما صدقك سواي، لهذا كنت الناجي:

يحمل الشاعر قصيدته رموزاً ودلالات منذ بدايتها، بل من خلال العنوان الذي يحمل في طياته دلالات الثأر والانتقام من الذين امتهنوا كرامة الإنسان الفلسطيني، وسلبوا أرضه، وشردوا أهلها، فينقل ذاكرة متلقيه إلى الماضي متقاطعاً زمنياً مع الحاضر، إلى زمن "زرقاء اليمامة" تلك المرأة التي يضرب بها المثل في حدة البصر وصدق الخبر، فقد أنذرت قومها بأن العدو قادم إليهم لمهاجمتهم فلم يصدقوها بل كذبوها.

فالشاعر يستدعي حكاية تلك المرأة "زرقاء اليمامة "، ليسقطها على الإنسان الفلسطيني الذي ينتظر ولادة امرأة تستشرف له المستقبل في أمل للخلاص من حالة التشتت والضياع التي يعيشها، واتضح ذلك عندما ذكر "جفرا " الكنعانية، والتي ولّد منها الشاعر رموزاً ودلالات أكثر من دلالات "زرقاء اليمامة"، والتي شكلت عالماً إيقاعياً حركياً تجاوز الحاضر، فجفرا لم تعد الفتاة الجميلة والمحبوبة، بل أصبحت بوصلة الفلسطينيين تحذرهم من الخطر عندما يحوم حولهم شبح الموت ويطاردهم سواء من العدو الصهيوني أو من الأصدقاء الأعداء، ونجده أيضاً يستذكر قصة التيه ويعكسها على الفلسطيني المشرد والبعيد عن أهله ووطنه .

---

(1) القران الكريم، سورة المائدة، الآية 24.

(2) عز الدين المناصرة، الأعمال الشعرية، ص47.

الخاتمـــــة

بعد رحلة التطواف حول رمزية اللاجئ الفلسطيني في شعر شاعرنا الفلسطيني عز الدين المناصرة، الملقـب بشاعر المقاومة، فقد توصل الباحث إلى العديد من النتائج:

- يعتبر المناصرة رائد الرمز الكنعاني الوطني والذي اختص به عن سواه من الشعراء الفلسـطينيين، فعمـل مـن خلاله على فتح مساحة واسعة من الإيحاء والدلالة، فابتدع رموزاً خاصة به ميزته عن غيـره مـن الشـعراء الفلسطينيين، مثل كنعان، جفرا، عنب الخليل، امرئ القيس، أبو محجن الثقفي التي جعلها رمزاً وأسطورة للإنسان الفلسطيني في حله وترحاله.
- يعد الرمز عند المناصرة أداة تعبيرية متجددة تعمل في عدة اتجاهات، وتتحرك على أكثر مـن مسـتوى، وعـن وعي وتجربة فنية تعمدها الشاعر؛ ليبرز من خلالها عمق تجاربه، وأصالة انفعالاته المنبثقة الهادفة إلـى إيقـاظ الفكر وإغناء التجربة.
- تنوعت مرجعيات الرموز في قصائد المناصرة بين رموز وطنية ورموز تراثية وطبيعية، وأخرى مستوحاة مـن واقع الحياة الإنسانية، وكانت المرجعيات التراثية من أكثر المرجعيات الرمزية حضـوراً فـي المـتن الشـعري الفلسطيني عند المناصرة، وذلك لقدرتها على خلق نوع من التوازن بين التراث والأحداث المواكبـة لتطـورات الواقع.
- عمد المناصرة إلى الرموز التاريخية والدينية القديمة، وذلك عن وعي وصدق تجربته، فكان يلجأ ويختار القريبـة من مأساته ومأساة شعبه المعذب المقهور في بقاع الأرض.
- لا يتم التشكيل الرمزي في قصائد المناصرة على نمط ثابت وموحد؛ بل كان متغيراً ومتجدداً حسـب اسـتيعاب تجربته الشعرية الفنية، وهذا كان واضحاً وبارزاً في أشعاره، وهو دليل على نمو تجربتـه الشـعرية وإمكانيتـه اللغوية لتجسيد مواقفه وانفعالاته وأدواته التعبيرية.
- تأثرت رموز عز الدين المناصرة بالاتجاهات الغربية، فـشعره الرمزي كان انعكاساً للواقع الفلسطيني، بل إنـه عزز الثقافة العربية بإقامة حوار بين الأجيال والثقافات عبر النصوص والشخصيات.
- كان الرمز في شعر عز الدين المناصرة متعدد الأطوار، وكثير الصور، وعميق التأثير، ويحتاج إلى تفصـيلات كثيرة لإدراك أبعاده، كما أنه كان بمثابة أداة معرفية لإدانة الهزائم التي تعاني منها الأمة في هذا العصر.
- لجأ عز الدين المناصرة في بناء رمزه إلى تقنيات أسلوبية تراثية وحداثية ووطنية؛ ليعمق مـن خلالهـا الدلالـة ويرسخ أبعاد تجربته الرمزية.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

1- د. جابر عصفور، آفاق العصر، ط1، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، 1997.

2- د. خالدة سعيد، حركية الإبداع (دراسات في الأدب العربي الحديث)، ط2، دار العودة، بيروت، 1982.

3- د. رجاء عيد، لغة الشعر (قراءة في الشعر العربي الحديث)، منشأة دار المعارف، الإسكندرية، 2003.

4- ريتشاردز، مبادئ النقد الأدبي، ترجمة مصطفى بدوي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر، 1963.

5- د. صلاح فضل، بحوث سيمولوجية في شعرية القص والقصيد، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1995.

6- د. صلاح فضل، أساليب السرد في الرواية الحديثة، ط1، دار سعاد الصباح، الكويت، 1992.

7- أبي عبدالله الحسين بن الزوزي، شرح المعلقات السبع، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978.

8- د. عبد القادر الرباعي، في تشكيل الخطاب النقدي (مقاربات منهجية معاصرة)، ط1، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 1998.

9- د. عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، ط3، دار الفكر اللبناني، 1974.

10- د. عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر (قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية)، ط1، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، 1985.

11- عز الدين المناصرة، الأعمال الشعرية، ط5، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2001.

12- عزالدين المناصرة، حارس النص الشعري (شهادات في التجربة الشعرية)، ط1، دار كتابات، بيروت، 1993.

13- د. علي عشري زايد، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، ط1، مكتبة دار العلوم، القاهرة، 1978.

14- د.علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997.

15- د. محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، ط4، دار النهضة العربية، 1969.

16- د. محمد فتوح أحمد، الرمز والرمزية في الشعر العربي الحديث، ط3، دار المعارف، القاهرة، 1998.

17- د. واصف أبو الشباب، شخصية الفلسطيني في الشعر الفلسطيني المعاصر، ط1، دار العودة، 1981.